مستقبل تنظيم الدولة في العراق

صهيب الفلاحي*

ملخص: تستعرض الدراسة مستقبل تنظيم الدولة (داعش) في العراق، وسيناريوهات بقائه وانحساره بعد المعارك الكبيرة التي كبدته خسائر كبيرة في معاقله الرئيسة. يتكون البحث من توطئة تستعرض تاريخ سيطرة تنظيم الدولة على مدينة الموصل العراقية التي تعد النقطة الفاصلة في تاريخ التنظيم وتاريخ العراق، وما تبع ذلك من إصدار فتوى (الجهاد الكفائي)، وتكوين الحشد الشعبي الذي غيّر معادلة القوات النظامية في العراق، ونقلها إلى شبه دولة من خلال ضمّ المليشيات الرئيسة الشيعية تحت خيمته. وتبحث الدراسة الفرق في الإعداد والتسليح بين الحشد الشعبي والحشود العشائرية السنية التي تشكّلت لمحاربة تنظيم الدولة، ويأتي ذلك بالتزامن مع تشكيل التحالف الدولي في العراق وسوريا. وتتناول الدراسة أهم المناطق التي يسيطر عليها تنظيم الدولة في العراق، ومدى أهمية هذه الأماكن، والمناطق التي يمكن أن يلجأ إليها تنظيم الدولة بعد أن يفقد جميع مواقعه الرئيسة. ويُختَتَم البحث بالسيناريوهات المتوقعة لمستقبل تنظيم الدولة، والسيناريوهات المتوقعة لمرحلة ما بعد هذا التنظيم.

* باحث عراقي

The Future of the ‘Islamic State’ Organization in Iraq

SUHAIB AL-FALAHI*

ABSTRACT The study looks into the future of the ISIS, and provides various scenarios of its survival or decline after sustaining heavy losses in its strongholds in the latest battles. The study presents an account of ISIS’s control of the Iraqi city of Mosul, and the formation of popular mobilization units (PMU) that changed the formation of the armed forces in Iraq, and their transformation to a semi-state by the inclusion of the main Shiite militias under their umbrella. Moreover, the study examines the difference in preparation and arming between the popular mobilization units and the Sunni tribal mobilization units that were formed to fight ISIS.

* Researcher, Iraq

رؤية تركية
2017 - (6/1)
91 - 77

مدخل

في أوائل كانون الثاني عام 2014 تمكّن تنظيم الدولة (داعش) من السيطرة على الفلوجة والرمادي، وسقط العديد من المدن تحت سيطرته.

وفي 10 حزيران 2014 تمكّنت قوات تنظيم الدولة من السيطرة الكاملة على مدينة الموصل بكل منشآتها الحيوية والسيادية، كمبنى المحافظة، والمطار، والقنوات الفضائية الرسمية والخاصة، والسجن المركزي -الذي أطلقت منه ما يربو على ألف سجين- وسيطر تنظيم الدولة كذلك على فروع البنك المركزي العراقي في الموصل، إضافة إلى المعدات العسكرية الهائلة التي غنمها من الجيش العراقي الفار من المدينة، كالمدافع والدبابات والمدرعات والمنصات القتالية.

وفي 29 حزيران 2014 أعلن المتحدث باسم تنظيم الدولة أبو محمد العدناني في تسجيل صوتي عن قيام ما أسماه بالدولة الإسلامية، ومبايعة أبي بكر البغدادي لقيادة الدولة ولـ(خلافة المسلمين).

على إثر ذلك أعلن رئيس الوزراء السابق نوري المالكي عن تشكيل (جيش رديف) من المتطوعين أصحاب الإرادة، وانضمامهم إلى الجيش النظامي لمواجهة تنظيم الدولة[1]. غير أن انعدام الثقة بالمالكي وخصوصًا من أهل جنوب العراق أحبط هذه الدعوة، وماتت في مهدها.

بعد فشل دعوة المالكي، أعلنت المرجعية العليا للشيعة في العراق ممثلة بالسيد علي السيستاني فتوى (الجهاد الكفائي)[2] ، على لسان ممثلها في كربلاء الشيخ عبد المهدي الكربلائي في 13/ 6/ 2014، وتضمنت الفتوى دعوة "المواطنين الذين يتمكنون من حمل السلاح ومقاتلة الإرهابيين دفاعًا عن بلدهم وشعبهم ومقدساتهم عليهم التطوع للانخراط في القوات الأمنية، وأن هذا الدفاع عن الوطن وأهله، وأعراض مواطنيه، واجبٌ على المواطنين بالوجوب الكفائي" [3]. ودعا الكربلائي بوضوح إلى "أن يحث الأبُّ ابنه، والأمُّ ابنها، والزوجة زوجها، على الصمود والثبات دفاعًا عن حرمات هذا البلد ومواطنيه"[4] .

تبنت الحكومة العراقية بكلّ إمكاناتها دعم وتنفيذ فتوى (الجهاد الكفائي)، وبدأت تجييش لون واحد من الشعب العراقي للتصدي لتنظيم الدولة، وتبنت خطابًا أحاديًّا ابتعد عن الخطاب الوطني، وأصرّت أن تستنفر كلّ الشيعة في العراق للانضمام إلى هذا الجيش الجديد.

يمكن القول إنَّ فتوى (الجهاد الكفائي) أَسّست لواقع جديد يتمثل في تغيير صورة الصراع الدموي في العراق؛ من صراع بين جماعات مسلحة والدولة، إلى صراع بين مكونات المجتمع العراقي على أسس طائفية بحتة؛ ويُعدُّ يوم 13 يونيو/ حزيران 2014 إعلانًا رسميًّا عن اندلاع موجة جديدة من الحرب الأهلية، وبإعلان فتوى (الجهاد الكفائي) يكون العراق قد دخل مرحلةً جديدةً أسست لانقسامٍ مجتمعي خطير على أساس طائفي؛ كما أنَّ هذه الدعوة،

وحجم الاستجابة لها، أعطت صورةً واضحة عن الدور السياسي الكبير للمرجعية الدينية الشيعية في قيادة العراق، ورسم مساراته [5].

إن المستجيب الأكبر لدعوة (الجهاد الكفائي) هي المليشيات الشيعة الموجود على الأرض، كمنظمة بدر، وسرايا السلام، وعصائب أهل الحق، والتيار الرِّسالي، وحزب الله العراقي، وطليعة سرايا الخراساني، ومجموعات أخرى- التي شكلت ما يُسمّى اليوم (الحشد الشعبي).

ويبلغ عدد الفصائل المسجلة في هيئة الحشد الشعبي أكثر من 67 فصيلًا [6]، لكلٍّ منها هيكله التنظيمي الخاص به، ومرجعيته الخاصة، وساحته المتنوعة في العمل بين العراق وسوريا.

أعداد وتسليح الحشد الشعبي والحشود السنية في العراق

تقدّر بعض المصادر أن عدد المقاتلين المنضوين تحت رايات الحشد الشعبي في العراق لا يتجاوز 60 ألف مقاتل [7]، في حين يؤكد رئيس هيئة الحشد الشعبي في العراق مستشار الأمن الوطني فالح الفياض أن "عدد مقاتلي الحشد الشعبي 140 ألف مقاتل" [8].

في المقابل فإن عدد الحشود السنية في العراق التي تتبع لعدد من الشخصيات، أو الأحزاب المشاركة في العملية السياسية تزيد قليلًا على 13 ألف مقاتل[9]، وفق التفصيل الآتي:

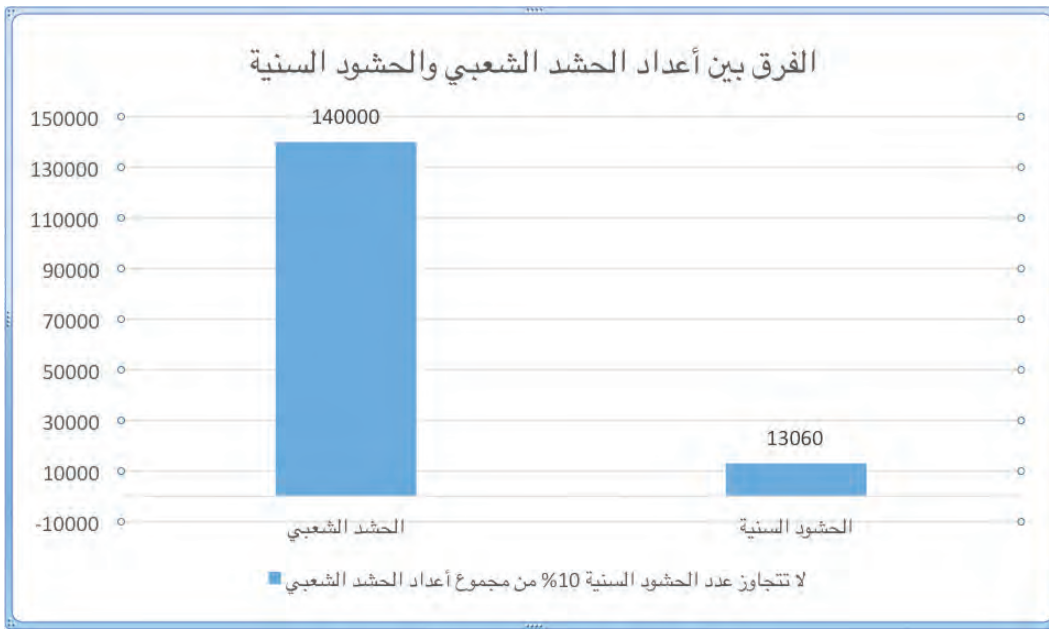

أعداد الحشود السنية في العراق		
ت	اسم الحشد	عدد المقاتلين المتطوعين
1	حشد نينوى	10.000 مقاتل متطوع
2	حشد الحويجة	2160 مقاتلًا متطوعًا
3	حشد الأنبار	900 مقاتل متطوع
المجموع	13.060 مقاتلًا متطوعًا	

الملاحظ من الجدول السابق أن أعداد الحشود السنية في العراق لا تتجاوز نسبتها 10٪ من مجموع أعداد الحشد الشعبي، وفي هذا السياق يؤكد النائب العراقي خالد المفرجي أن هناك مماطلة، وعدم إعطاء موافقة، وعدم سماح بتشكيل قوة سنية لمحاربة داعش، ففي عدة وجبات تُقدَّم أسماء 5000 شخص للمشاركة في تكوين قوة رسمية حكومية، لكن لا يُقبَل سوى 100 إلى 200 شخص فقط، في حين أن الحشود الأخرى من المتطوعين الشيعة يُقبَلون كلّهم بلا استثناء [10].

وفيما يتعلق بتسليح الطرفين، فالحشد الشعبي يملك كل ما يريده من أنواع الأسلحة الثقيلة والمتوسطة، فضلًا عن الخفيفة، فهو يمتلك الطائرات والدبابات والمدرعات، في حين لا يُسلَّح الحشد العشائري والحشود السنية بأكثر من الأسلحة الخفيفة، كرشاشات الكلاشنكوف[11].

تشكيل التحالف الدولي ضد تنظيم الدولة داعش

تسبب سقوط مدينة الموصل بيد تنظيم الدولة في تغير شكل التحالفات الدولية في منطقة الشرق الأوسط، فبعد تمدده السريع، وإلغائه الحدود بين العراق وسوريا، وسيطرته على خزائن من الأموال، وترسانة من السلاح، إضافة إلى امتلاكه خبرات قتالية محترفة، وإعلاميًا- استطاع أن يسوق لنفسه بالطريقة التي لم يسبق لها مثيل في كل الجماعات المسلحة، إضافة إلى سيطرته على حقول نفط كثيرة، وإنعاش تجارة السوق السوداء التي وفّرت له ملايين الدولارات- أصبح تنظيم الدولة بكل هذا لاعبًا دوليًّا، عابرًا للحدود، خارجًا من إطاره المحلي، منتقلًا بسعيه إلى العالمية، من خلال إعلانه الخلافة.

وأُعلِن عن تحالف دولي واسع ضم أكثر من 60 دولة بقيادة الولايات المتحدة ومشاركة بريطانيا وفرنسا والاتحاد الأوربي، إضافة إلى دول عربية على رأسها المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة والمملكة الأردنية إضافة إلى العراق، كما ضم التحالف الدولي الجمهورية التركية واليابان[12].

وكانت خطة الرئيس الأمريكي السابق باراك أوباما القضاء على تنظيم الدولة داعش من خلال الضربات الجوية ضد التنظيم، وذلك بالعمل والتنسيق مع الحكومة العراقية، وإرسال

قوة تدريبية تتكون من 475 خبيرًا عسكريًّا إلى العراق، من دون أن تكون لهؤلاء مهامّ قتالية، على أن ينضموا إلى حوالي 1150 جنديًّا آخرين[13].

بدأ التحشيد الدولي والإقليمي بعد التوسع المريب لتنظيم داعش، ودحره للقوات العسكرية النظامية والميليشياوية التي وقفت في وجهه، وكانت الإدارة الأميركية دشّنت تحرّكها ضد تنظيم الدولة في عدة محطات، أولاها مجلس الأمن الدولي (أغسطس/ آب 2014)، الذي استصدرت منه القرار (2170) تحت البند السابع يشرّع فيه الحرب ضد هذا التنظيم المسلح، من مختلف الجوانب، على خلفية تمدده في العراق وسوريا. وثانيها تمثلت في اجتماع قمة دول الناتو في مقاطعة ويلز في بريطانيا في أيلول، بحضور الرئيس الأميركي باراك أوباما، بالتزامن مع استهداف الطائرات الأميركية مواقع التنظيم في العراق، والذي أبدى فيه قادة دول حلف الأطلسي استعدادهم لمساعدة العراق إذا ما طلب ذلك[14].

وتكمن المفارقة في أن التحالف قرر ضرب التنظيم في العراق وسوريا معًا، مع تجاهل مواجهة الشروط المؤسسة له ولصعوده، التي تتمثل في سياسات النظام السوري وقمعه للاحتجاجات السلمية، واستمراره خلال ثلاثة أعوام في استخدام الأسلحة المختلفة لضرب المعارضة؛ وهو ما أدى أولًا إلى عسكرة الانتفاضة السلمية، وثانيًا إلى بروز القاعدة، ثم انشطارها بين تنظيم الدولة الإسلامية والنصرة هناك، وأخيرًا، إلى تعزيز نفوذ هذا التنظيم الذي أتقن فن اللعبة الطائفية، ووظفها بدوره في مواجهة الطرف الآخر، معتمدًا على خطاب هويَّاتي صلب وسافر، في تجنيد الشريحة السنِّية الكبيرة، التي كانت تشعر بحالة من اليأس والإحباط الشديد من أي أفق سياسي سلمي للتغيير، ومن تخاذل المجتمع الدولي عن وضع حد للمأساة التي عايشتها، فأدت إلى هجرة الملايين، وقتل مئات الآلاف، وتعرضت لجملة من المجازر والكوارث التي حلَّت بها[15].

مناطق تسيطر عليها داعش في العراق

نستطيع القول إن تنظيم الدولة لم يعد يسيطر على أي محافظة عراقية بالكامل، بعد أن كان يضع يده على مساحات كبيرة من محافظات الأنبار ونينوى وصلاح الدين، لكن مع هذا فإن تنظيم الدولة لايزال يسيطر على جيوب مهمّة جدًّا في هذه المحافظات، وتُعدّ هذه الجيوب معاقله الرئيسة بعد أن فقد مراكز المحافظات الكبيرة، ومن أهم هذه المناطق التي لا تزال تحت سيطرة داعش هي:

الجانب الأيمن من الموصل

يسيطر تنظيم الدولة داعش حتى لحظة كتابة هذه الورقة (بدايات 2017) على ما يقرب من 40٪ من مدينة الموصل، وتحديدًا على الجانب الأيمن منها، ويقع الجانب الأيمن لمدينة الموصل جغرافيًّا غرب نهر دجلة، ويخرج منه الطريق الرئيس الرابط بين مركز محافظة نينوى والحدود السورية، ويعد أكبر تجمع سكاني لايزال يسيطر عليه داعش في العراق، ويمتاز

بأحيائه العتيقة، وتقارب مساكنه، وضيق أزقته، وهي مؤشرات سلبية بالنسبة لحركة الدبابات والعربات الكبيرة على الأرض، وقد تتحول المعارك في الساحل الأيمن إلى حرب شوارع، وهذا يعني أن الجنود العراقيين سيكونون أمام خطر العبوات الناسفة والسيارات المفخخة والعمليات الانتحارية والطائرات المسيّرة، إضافة إلى القناصة. كما أن القوات العراقية لن يكون بإمكانها الاعتماد الكثيف على القصف الجوي والمدفعي، لكثافة المباني السكنية وتقاربها الشديد[16].

مناطق متفرقة من محافظة الأنبار

يقدر النائب في البرلمان العراقي خالد المفرجي أن قوات تنظيم الدولة تسيطر على ما يقرب من 25٪ من محافظة الأنبار، وهذه المناطق مساحات متفرقة، بعضها داخل المدن الرئيسة كمدينة الرمادي وهيت وغيرهما، وبعضها يوجد فيها خلايا تتحرك بأوقات معينة، تستخدم أسلوب التفخيخ.

إضافة إلى أن تنظيم الدولة يتخذ من المناطق الصحراوية ملاذات آمنة له، بغرض إعادة صفوفه، وخاصة في مناطق القائم والرطبة غربي المحافظة.

وفي هذا السياق يؤكد عدنان العيثاوي وهو أحد قيادات الحشد العشائري أن الأنبار لن تتحرر بالفعل ما لم تتم استعادة مناطقها الغربية من سيطرة تنظيم الدولة، لأنه يستغل المساحات الصحراوية الشاسعة والكهوف والمغارات للاختباء وإدارة عملياته، ويعيد تنظيم صفوفه في هذه الأماكن[17].

مناطق من محافظة كركوك

يعد قضاء الحويجة في الناحية الغربية من محافظة كركوك وفي الجهة الجنوبية لمحافظة نينوى، أحد المعاقل الرئيسة لعناصر تنظيم الدولة داعش، ويبلغ عدد سكانه الذين نزح بعضهم إلى محافظتي كركوك وصلاح الدين عقب سيطرة التنظيم عليه بنحو 400 ألف نسمة.

وتعادل مساحة قضاء الحويجة نحو 58٪ من محافظة كركوك التي تبعد 240 كم شمال بغداد، وهي منطقة تتمتع بمكانة إستراتيجية خاصة، فهي تنتج آلاف الأطنان من القمح والحبوب، وتمر بها خطوط النفط الناقلة.

وشهد هذا القضاء مجزرة كبيرة كانت ضحيتها العشرات عندما فضت القوات الحكومية في زمن رئيس الوزراء السابق نوري المالكي اعتصامًا لأهالي الحويجة، كان متزامنًا مع الاعتصامات التي شهدها العراق في نيسان 2014، ويسيطر تنظيم الدولة داعش على قضاء الحويجة منذ 10 حزيران 2014.

جيوب يصعب السيطرة عليها

بحكم طبيعة بعض المناطق في العراق، فإن تنظيم الدولة داعش يمكن أن يسيطر على مجموعة من الجيوب المتفرقة في العراق، والتي تشكل أحيانًا نقاطًا إستراتيجية لربطها بين عدة مناطق، ويمكن أن تكون هذه المناطق منطلقًا لعملياته المختلفة، خاصة إذا فقد المدن الرئيسة له، كنينوى وما تبقى له في الأنبار وكركوك، وأهم هذه المناطق هي:

جبال حمرين

جبال حمرين أو تلال حمرين: سلسلة جبلية في العراق، تمتد من محافظة ديالى الواقعة 60كم شرقي بغداد إلى مدينة كركوك الغنية بالنفط الواقعة 260كم شمال العاصمة العراقية بغداد، ويبلغ ارتفاع السلسلة الجبلية 1640 قدمًا.

تمرّ في جبال حمرين عدة قنوات مائية متواضعة الحجم، إضافة إلى أنّ فيها العديد من الموارد الطبيعية الضخمة التي لم يُستفد منها بالشكل الأمثل إلى اليوم.

تُعدّ هذه الجبال أكثر خطورة؛ لأنّها تمثل ممرًّا مهمًّا لمحافظات الجنوب والوسط، وقد جعلها موقعها الإستراتيجي نقطة للصراع بين العراق وإيران، فالعسكريون العراقيون يؤكدّون أنّه من الصعب السيطرة على هذه الجبال؛ بسبب طبيعتها الوعرة وارتفاعها ومسالكها الصعبة، وتوجد في محافظة ديالى ثلاثة منافذ تؤدّي إلى جبال حمرين، هي: طريق المقدادية وطريق مندلي وطريق جلولاء، إلّا أنّ الطرق الفرعية التي أنشِئت في الآونة الأخيرة تصل إلى العشرات.

ويُعدّ مناخ جبال حمرين، ضمن المناخ الانتقالي بين مناخ البحر المتوسط والمناخ الصحراوي، وهو مناخ يتميز بالبرودة الشديدة شتاءً وانخفاض معدّل الرطوبة، وترتفع درجة الحرارة خلال الصيف.

إنّ موقع جبال حمرين، وثرواتها الطبيعيّة جعلها ذات أهميّة بالغة، وإنّ من أهمّ مميّزات جبال حمرين:

- وجود كميات كبيرة من النفط، ووجود حقول الغاز الطبيعي.
- وجود قنوات مائية عديدة تغذي المنطقة.
- وعورة جبالها ممّا يؤدي إلى صعوبة السيطرة عليها.
- وجود ثروة حيوانيّة، حيث تُعدّ الأغنام على رأس هذه الثروة، إضافة إلى وجود الأبقار والماعز.
- تتميّز أراضيها بوجود التربة الخصبة الصالحة للزراعة، وإنتاج كل أنواع المحاصيل الزراعية.
- تتميّز بارتفاعها، حيث يبلغ ارتفاعها عن سطح البحر أكثر من 1200 متر.
- تواجه المنطقة صراعات ومواجهات عديدة، بحيث أصبحت جبال حمرين مأوىً للتنظيمات التي أقامت فيها معسكراتها وبيوتها التنظيمية، وهذا جعلها منطقة صراعات وحروب بين القوات العراقية على مر السنوات السابقة، وبين الكثير من التنظيمات والعصابات التي حاولت الاستيلاء عليها، ففي زمن صدام حسين كان الكثير من عصابات التهريب تلتجئ إليها، وكانت تدور معارك للسيطرة عليها، ولكن لم يستطع حتى صدام رغم قبضته الحديدية القضاء عليها.

وبعد أن سيطر تنظيم الدولة داعش على مساحات كبيرة في العراق، كانت هذه الجبال ضمن المناطق المسيطر عليها، وقد شهدت العديد من المعارك مع القوات الأمنية العراقية، وتحديدًا الشرطة الاتحادية، ولكن لم تتحقق للحكومة العراقية السيطرة عليها.

بعد هذه الاستعراض السريع لموقع سلسلة جبال حمرين وأهميته، فإن تنظيم الدولة داعش يدرك بوضوح أهميته الإستراتيجية، ويذكر الأستاذ جاسم محمد[18] في كتابه (داعش وإعلان الدولة الاسلامية والصراع على البيعة): "الدولة الإسلامية تنقل مركزها إلى سلسلة جبال حمرين، وهي تتمترس ما بعد الصحراء الغربية، ويمكن ان تكون سلسلة جبال حمرين بديلًا إلى صحراء الأنبار وذراع دجلة، وإن التمترس الحقيقي والإمداد الطبيعي للتنظيم في هذه الجبال يكمنان في السلسلة الملاصقة لمحافظة صلاح الدين، وإن تقديرات خبراء الدفاع في الحكومة العرقية تشير إلى أن الجيش غير قادر على خوض معركة حاسمة في هذه الجبال، رغم إعلان قيادة عمليات دجلة عن تدمير معسكرات لداعش في هذه الجبال، وكشفت مصادر أمنية عراقية أن قيادات في تنظيم داعش انتقلت مع معدات ومقاتلين من مواقع في محافظة الأنبار إلى جبال حمرين في وقت سابق، وهذه المناطق ستكون الملاذ الآمن ولفترة طويلة. وإن تنظيم الدولة يعتمد إستراتيجية استنزاف القوات العراقية، فهي تضرب وتختفي في جبال حمرين"[19]

قضاء البعاج:

قضـاء البعـاج محافظة عراقية تقع على بعـد 100 كيلومتر غرب الموصل، وتبلغ مسـاحتها نحـو 10 آلاف كيلومـتر مربـع، وهـي ذات تضاريـس صعبة للغاية. يحدها من الغرب الحدود السورية (محافظة الحسكة)، ومن الجنوب محافظة الأنبار، وتحديدًا صحراء الأنبار، ومن الشمال والشرق سلسلة جبال سنجار، أعلى قمـم جبلية في العراق، وهي مدينة ذات طابع عشـائري بحـت، وتقطنها قبائل شـمر وعنزة وزبيـد والعكيدات والصكـور وعيال الشـيخ والجبور وغيرها من العشـائر العربيـة. تعرضـت البعاج في زمن حكـم رئيس الوزراء السـابق نوري المالكي إلى سلسلة مجازر وانتهاكات ذات بعد طائفي ساعدت على سقوطها بيد التنظيم في أول ساعات اقتحامه العراق قادمًا من سورية في العـاشر مـن يونيو/ حزيران عام 2014، حيث لم يجد الجيش هناك أي مسـاعدة من الأهالي الذين تركوه يواجه تنظيم الدولة داعش.

بحكم طبيعة بعض المناطق في العراق، فإن تنظيم الدولة داعش يمكن أن يسيطر على مجموعـة من الجيوب المتفرقة في العراق، التـي تشـكل أحيانًـا نقاطًـا إستراتيجيـة لربطها بين عدة مناطق، ويمكن أن تكون هذه المناطق منطلقًا لعملياته المختلفة

يمتاز قضاء البعاج بأرضية خصبة للزراعة، وبالأخص الحنطة والشعير، حيث تعادل 15٪ من إنتاج محافظة نينوى، ويسكن قضاء البعاج الكثير من العشائر، ويعد من أبرز الأقضية التي وقفت في وجه الاحتلال الأمريكي.

وقضـاء البعـاج يمثل منطقة شـبه صحراويـة، تتوافر فيها فرصة أن تمارس شـتى وسـائل المقاومة والمطاولة، وفيها شـقوق أرضية كثيرة تصلح كمخازن عسـكرية ولوجستية، وتصلح معسـكرات تدريـب، هـذه المدن متداخلة عشـائريًا مـع مدن الحد السـوري الشرقـي، وبينها مشتركات تجارية واقتصادية كبيرة.

يقول الخبير الأمني العراقي المختص بشؤون الجماعات المسلحة في العراق هشام الهاشمي: "إن مدينـة البعـاج العراقية التابعة لمحافظة نينوى شـمالي العراق هـي (عاصمة تنظيم الدولة الإسـلامية السرية)، وإن تنظيـم الدولة داعش ضمّ منطقة البعـاج إلى (ولاية الجزيرة) بعد أن قسـم المنطقة، وهذه التقسـيمهات التي أوجدها تنظيم الدولة تعد إسـتراتيجية مدن بديلة بعد الهزيمة، موجودة غرب العراق، وشرق سورية، وهي مدن حدودية لم تهزم من قبل، وتتواجد في بعضها الجماعات التكفيرية، وعصابات التهريب منذ 2003، وإن العدناني أعلن (الخلافة) مـن عـلى أرض هذه المنطقة، وتدل كل المؤشرات والتقارير عـلى تواجد البغدادي في مدن هذه المنطقة، حيث بالإمكان عدّها عاصمة داعش، فهي محمية عسـكرية بالبؤر الصعبة من الجانب السـوري ديـر الـزُّور والبوكمال والهجـين، ومن الجانـب العراقـي القائم وصحـراء القيروان وجزيرة الثرثار وبادية البعاج، وهي ممر لكل عمليات التنقل العسكرية والتجارية"[20].

التنظيمات المتصارعة في العراق وسوريا على اختلاف تنوعها لم تستطع أن تفعل ما فعله تنظيم الدولة داعش في السيطرة على ما يقرب من نصف مساحة سوريا، وأكثر من ربع مساحة العراق

ويقول الخبير في شؤون الجماعات المتطرفة، فؤاد علي: إن "هذه المدينة مؤهلة لتكون مقرًّا لداعش أو معقله الجديد، وإن تضاريس المدينة، ومساحتها الكبيرة، وقربها من سورية، ومن ثم صحراء الأنبار، وسلسلة جبال سنجار، يجعلها المكان الذي سيُطيل عمر التنظيم شهورًا إضافية، وإن مدينة البعاج هي المكان الأفضل، أو البديل الوحيد للتنظيم بعد الموصل في ظل الحديث عن بدء الهجوم على الرقة"[21].

مناطق أخرى متفرقة

لا تقتصر الجيوب التي ستحرج الحكومة العراقية في السيطرة عليها على سلسلة جبال حمرين وقضاء البعاج، إنما هناك مناطق أخرى ستعد معاقل جديدة لتنظيم الدولة داعش، مثل منطقة الجزيرة في نينوى، ومنطقة الحويجة في كركوك، ومنطقة القائم وراوة، وصحراء الأنبار، وهناك أيضًا صحراء تمتد لأكثر من 400 كيلومتر بين الأنبار ونينوى، تأخذ شكل نصف دائرة لا تزال خارج سيطرة الدولة العراقية ويحكمها التنظيم.

مستقبل داعش ومستقبل ما بعد داعش

انطلاقًا مما تقدم، نستطيع الحديث عن اتجاهين رئيسين سيحددان مستقبل تنظيم الدولة داعش، ومستقبل ما بعد داعش، وفي كل اتجاه منهما عدد من السيناريوهات المتوقعة.

الاتجاه الأوّل: مستقبل تنظيم الدولة داعش

السيناريو الأوّل: انحسار (تنظيم الدولة) وتحوّله من الخلافة إلى تنظيم

التنظيمات المتصارعة في العراق وسوريا على اختلاف تنوعها لم تستطع أن تفعل ما فعله تنظيم الدولة داعش في السيطرة على ما يقرب من نصف مساحة سوريا، وأكثر من ربع مساحة العراق، لكن هذا التضخم يتعرض الآن إلى انحسار كبير، خاصة بعد معارك الفلوجة وديالى وتكريت ونينوى، وكذلك بعد عملية درع الفرات التركية في الشمال السوري.

لا شك أن تنظيم الدولة يمتلك أسباب البقاء، لكنها أسباب لا تقوى على الصمود طويلًا، لهذا نحن الآن نتحدث عن انحسار (دولة الخلافة) بالشكل الذي يجعل تنظيم الدولة عبارة عن تجمعات هنا وهناك، وفي مناطق نائية، وصعب السيطرة عليها، أو حسم معركة فيها لصالح القوات التي تحاربه.

هذا الانحسار الكبير سيحوّل تنظيم الدولة من كونه الأكبر والأقوى في العراق وسوريا إلى كونه تنظيمًا لا تتجاوز قوته قوة بعض التنظيمات الأخرى، وخاصة في سوريا، وهذا سينعكس على مستقبل الصراع في المنطقة أيضًا.

وهذا الانحسار سيجعله يتجه نحو عدد من الجيوب المتفرقة المتباعدة التي لا تجعل منه تنظيمًا يستطيع السيطرة على خريطة تحركاته في الوقت أو الزمان الذي يريد، إنما سيتّبع أسلوبه القديم في الهجوم المباغت السريع وينسحب سريعًا، أو ربما لا يستطيع حتى الانسحاب، فيتبع أسلوب التفجير الانتحاري بمختلف أنواعه.

خاصة مع خسارته لمصدر ثروته المهمة في السيطرة على آبار النفط من جهة، وفقدانه الحاضنة الشعبية التي أصابها الضرر الكبير جراء عمليات التهجير الجماعية، وتدمير المدن، ومصالح الناس المختلفة.

الأمر الآخر الذي يؤيد هذا السيناريو هو فقدان تنظيم الدولة داعش للقيادات المهمة فيه، فقد قُتِل العشرات منهم في المعارك المختلفة في سوريا والعراق، وهذا سيؤثر بالضرورة في حركة التنظيم، وحتى لو استقطب التنظيم كوادر جديدة فستكون في غالبها غير مهيئة للقيادة، أو ضعيفة التجربة (الجهادية)، أو صغيرة السن، وكل هذا في حال استطاع فعلًا التنظيم مواصلة عملية التجنيد، التي ستشهد تضييقًا ومحاربة كبيرة.

ربما يؤسس تنظيم داعش، لنسخ جديدة من القاعدة في صورة كيانات إقليمية محلية جديدة في المناطق النائية، مثل الجهود المبذولة لإقامة هيكل للتنظيم في ليبيا على سبيل المثال. لكن أي مؤسسة من هذا القبيل ستكون تحت الهجوم المتواصل، ومن غير المرجح أن تنجو مع مرور الوقت. فقد رأت القوى الخارجية الكبرى أن الدول الفاشلة والمناطق غير المحكومة في الشرق الأوسط الكبير تشكّل خطرًا غير مقبول على مصالحها الحيوية الأساسية. ومن ثَمّ، تتحرك هذه القوى في اتجاه تجميد الحروب الأهلية، وفرض النظام على المناطق[22].

السيناريو الثاني: تماسك التنظيم والصراع المفتوح

المناطق التي جرى الحديث في عنها آنفًا بأنها مناطق وعرة وقاسية والسيطرة عليها ستكون صعبة بل مستحيلة- ستجعل من تنظيم الدولة يعيش في معاقل محمية، يدير فيها نفسه بالشكل الذي يحقق تماسكه ويعيد الصلابة إليه، ويجعل من الصراع معه مفتوحًا على كل الخيارات.

إضافة إلى ذلك فإن من أهم أسباب تمايز وقوة تنظيم الدولة هو اعتماده على قيادات عسكرية وأمنية وإدارية لها خبرات وتجارب ترجع في أصولها إلى النظام العراقي السابق، وكان هؤلاء أساس البناء والدعوة لبيعة البغدادي، وهم من شجَّع البغدادي على إعلان تأسيس فرع الدولة في الشام حين بلغ عدد أتباعه في الرقة ودير الزور والحسكة وريف حلب وريف إدلب وجبال اللاذقية قرابة 12 ألف مقاتل. كما نصحوا البغدادي بتبنِّي قضية يكون من خلالها مقبولًا لدى السُّنَّة، وهي قتال الشيعة العلويين، وإيقاف الزحف الشيعي الإيراني العراقي اللبناني داخل سوريا[23]. وهذا ما سيسعى التنظيم إلى إنتاجه من جديد.

الاتجاه الثاني: مستقبل ما بعد داعش

السيناريو الأوّل: تحول التنظيم إلى نسخة جديدة

لا يعتمد هذا السيناريو على تنظيم الدولة داعش على وجه الخصوص، وإنما يعتمد على الكيفية التي ستدار بها العراق بعد انتهاء المعارك الرئيسة الكبرى في الموصل وغيرها، وهذه النتائج هي التي ستسهم في إذكاء التطرف من جديد، أو المعالجة المتوازنة التي ستنهي أسباب ظهور داعش وإخوته.

فلا مجال للشك أن جزءًا جوهريًّا من أسباب ظهور تنظيم الدولة داعش جاء بسبب الممارسات الطائفية والظلم وعدم التوازن التي مارستها الحكومات في العراق وسوريا، فالسنة في العراق بعد أن أصابهم الكم الأكبر من الظلم في ظل حكومة الجعفري، وحكومتي نوري المالكي خرجوا بانتفاضة شعبية عفوية طالبوا بإعادة الحقوق، وإنصاف المظلومين، والتوازن في الجيش والشرطة، والوظائف الحكومية، إضافة إلى مطالب أخرى تحقق وتعيد الإطار المدني إلى العراق، ولكن ما لبث أن هدد المالكي هذه المظاهرات، ثم لم يتردد في إنهائها بسفك دماء المئات.

وهذا الأسلوب نفسه استخدمه بشار الأسد في قمعه للشعب السوري الذي خارج مطالبًا بحريته.

هذه الأسباب الإستراتيجية في تدمير شريحة كبير من الشعوب إذا لم تُحّل وتُعالَج من جذورها فإن عودة تيارات (متطرفة) إلى الواجهة من جديد ستكون هي السيناريو الأبرز بعد انتهاء المعارك الرئيسة ضد تنظيم الدولة.

وفي هذا السياق لا نتصور حلًّا لهذه المشكلات المستعصية منذ 2003، ولغاية اليوم، وبخاصة مع واقع يثبت أن لا مجال حقيقي للإصلاح، ومع تصريحات تؤكد أن سياسة الإقصاء ستكون هي سيد الموقف، وفي هذا الإطار يقول زعيم مليشيا (عصائب أهل الحق) إن قوة الحشد الشعبي باقية وتتمدد، ولن تستطيع أي جهة مسؤولة في الدولة العراقية أن تلغي الحشد، وإن الحشد الشعبي بعد الانتهاء من المعارك سوف يكون حاضرًا في المشهد السياسي العراقي، ويقضي على كل الفساد المستشري في العراق، وإنه (باق ويتمدد).

ورغم هذه التصريحات إلا أن رئيس الوزراء العراقي حيدر العبادي يصر على أن هذا الخيار مستبعد، وذلك من خلال تقديمه لرؤية مكونة من سبع نقاط، تركز على إحلال الأمن والاستقرار في المناطق المحررة من داعش، وتحقيق التعايش السلمي وقبول الآخر، والترويج لروح المواطنة بعيدًا عن الطائفية، وإنشاء علاقات جيدة مع دول الجوار استنادًا إلى المصالح المشتركة، وحصر السلاح بيد الدولة، والامتثال لأحكام القضاء وسلطة القانون، ومحاربة الفساد بكل أشكاله، وإعادة هيكلة مؤسسات الدولة لإبعادها عن الفساد[24] .

ومعركة التصريحات هنا ستحسمها الوقائع التي ستكون على الأرض، والتي تشير في أغلبها إلى أن لا شيء من رؤية العبادي سيتحقق.

السيناريو الثاني: الصراع الداخلي العراقي

ثَمّة احتمالية صراع داخلي بين الأطراف التي تحارب داعش، مثل الحشد الشعبي والبيشمركة ، وأيضًا جهات أخرى، مثل الحشود السنية التابعة لجهاتٍ أو عشائرَ أو أشخاص وإن كانت ضعيفة التسليح.

ولهذا السيناريو ما يؤيده في الواقع العراقي، ففي الأعوام 2014 و2015 و2016 حصلت مواجهات أكثر من 5 مرات بين الحشد الشعبي والبيشمركة في مناطق طوز خورماتو وسنجار وغيرهما، حتى إن بعضها لم يتوقف إلا بعد تدخل القنصل الإيراني وفض النزاع بين الجانبين.

ويؤيد هذا السيناريو العديد من السياسيين والمحللين السياسيين، وقد وقفنا على أبرز هذه التخوفات التي تأتي كلها في إطار واحد، ولكن تنظر إلى الموضوع من زواياه المتعددة، نستعرضها هنا بشكل مختصر:

– النائب العراقي السابق وائل عبد اللطيف: "ما هو مؤكد أن تنظيم داعش الحالي هذا إلى زوال، لكن داعش آخر سيبدأ، متمثلًا في خطر التجزئة، وصراع الحدود، والثروة، والسلطة".

– محافظ أربيل نوزاد هادي مولود: "مرحلة ما بعد داعش تعني بالنسبة للأكراد حق تقرير المصير، والانفصال عن العراق".

– عضو الحزب الإسلامي في العراق محمد الجبوري: "إن الخلافات الناشبة بين بغداد وأربيل انتقلت إلى العلن، وبشكل صريح أكثر من أي وقت مضى، سبب ذلك اقتراب نهاية تنظيم داعش، ومحاولة الجانبين رسم خارطة جديدة لحدودهما".

– المحلل السياسي كامل الشمري: "إن مرحلة ما بعد طرد تنظيم داعش تنذر بصراع كردي–شيعي في المناطق المتنازع عليها بين حكومة الإقليم وحكومة بغداد المركزية".

– بطريرك الكلدان في العراق والعالم لويس ساكو: "قد تحمل مرحلة ما بعد داعش سلسلة من الانتقامات، وتصفية عرقية، ومذهبية، وطائفية، حيث إن السياسيين مزقوا البلد، وقسموه وفقًا لمصالحهم".

ويأتي هذا السيناريو ليؤكد أسباب عدم الاستقرار السياسي بعد مرحلة داعش، ومن أهم هذه الأسباب:

1. عدم الاتفاق بين القيادات السياسية في العراق، وهي السمة الأبرز بعد الاحتلال، واستحالة اتفاقهم، وهذا يقوّي داعش أيضًا.

2. عدم إعادة هيكلية المؤسسة العسكرية بالشكل الصحيح في الوقت الذي تراجع فيه داعش، بعد عدد من المعارك ضد القوات الأمنية المختلفة.

3. مشكلة انعدام التوازن العسكري والعقيدة العسكرية في القوات الأمنية في العراق.

4. استمرار كون الحشد الشعبي أحد أهم نقاط الخلاف وعدم الاستقرار، إذ إنه منع تشكيل صف واحد لحرب داعش.

5. الواقع الفعلي الآن في كل المعارك أن العشائر والقوات السنية منعوا من أن يكونوا جزءًا مهمًا من الحرب على داعش.

6. موضوع عدم إعادة النازحين إلى المناطق المحررة من داعش إلا بشروط شبه مستحيلة[25]، كما في منطقة جرف الصخر، ومحافظة ديالى وآمرلي.

7. عدم وجود حرب حقيقية على الفساد الذي نخر الدولة العراقية.

الهوامش والمصادر :

1. صحيفة المدى العراقية 11-6-2014 ، https://goo.gl/XgnIuE
2. يُعدّ الجهاد الكفائي واجبًا على الجميع حتى يبلغ الأمر كفايته.
3. موقع السيد علي السيستاني https://goo.gl/6w92GO
4. موقع الحشد الشعبي http://cutt.us/jIe9
5. دراسة "قراءة في الاحتلال الأميركي وتعزيز النفوذ الإيراني" مركز صناعة الفكر للدراسات والأبحاث- http://

cutt.us/rWTfP
6. مركز الروابط للبحوث والدراسات الإستراتيجية http://rawabetcenter.com/archives/31326
7. مستقبل الحشد الشيعي بعد داعش، موقع الجزيرة نت، ديسمبر 2016، http://cutt.us/lulzO
8. موقع الحشد الشعبي http://cutt.us/y06j
9. محاضرة للنائب في البرلمان العراقي عن مدينة كركوك ورئيس لجنة الأقاليم خالد المفرجي، قدمها في رابطة الإعلاميين العراقيين في الخارج- إسطنبول، 2017/2/11
10. المصدر السابق.
11. اتهام حكومة العراق، موقع الجزيرة نت، ديسمبر 2016 http://cutt.us/wolX
12. الدول المساهمة في الحرب على داعش، أورينت، 2014، http://www.orient-news.net/ar/news_show/81910
13. مركز الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية http://acpss.ahram.org.eg/News/5397.aspx
14. تقدير موقف الحرب على تنظيم الدولة... وماذا بعد؟ يحيى صهيب http://cutt.us/i0kZm
15. محمد أبو رمان، مستقبل الحرب على تنظيم (الدولة الإسلامية)، مركز الجزيرة للدراسات - http://cutt.us/6kKxF
16. تقرير عن الجانب الأيمن من الموصل، ارفع صوتك، 2017، http://www.irfaasawtak.com/a/350544.html
17. تقرير: (داعش) يعيد تنظيم صفوفه داخل صحراء الأنبار http://cutt.us/t2QQU
18. جاسم محمد: باحث متخصص في مكافحة الإرهاب والاستخبارات، مدير المركز الأوربي العربي لدراسات مكافحة الإرهاب والاستخبار، دبلوماسي عراقي سابق
19. كتاب داعش وإعلان الدولة الإسلامية والصراع على البيعة– بتصرف– ص104–106 .
20. مدينة البعاج العراقية، الشمال، 2015، http://aranews.org/2015/11/48967/
21. موقع العربي الجديد http://cutt.us/k3VL6 - بتصرف
22. تقرير لرونالد تايرسكي- (ريل كلير وورلد)- ترجمة علاء الدين أبو زينة- صحيفة الغد الأردنية
23. هشام الهاشمي، تنظيم الدولة (داعش) بين احتمالية البقاء والتفكك، مركز الجزيرة للدراسات، 2015، http://cutt.us/QcWEG
24. العبادي يطرح رؤيته، صحيفة المدى برس العراقية، 2017، http://cutt.us/3G8aE
25. أمير العبيدي، شروط تعجيزية لإعادة نازحين، موقع القدس العربي، http://www.alquds.co.uk/?p=672954